الانقلاب العثماني (*

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

٣

بروتوكل لوندره ورفضه

سمي جمهور المبعوثين بعد ذلك (اوت افندم) لتصديقهم على كلام الرئيس بدون مناقشة ولا مباحثة ، ولكن كان فيهم — والحق يقال — فئة عارفين بمصالح الدولة وطرق الاصلاح ، جسورين على التكلم والدفاع عن حقوق الامة والمناضلة في سبيل منافعها ، غير ان الحال كانت ذات خطر شديد لأن العدو كان يتأهب للحرب على الحدود ، فأراد رئيس المجلس تحويل المذاكرات الى المسائل الخارجية لان مندوبي الدول الست الذين عقدوا مؤتمر الاستانة اجتمعوا في لوندره وليس للدولة العليـة مندوب معهم ، ووقعوا بتاريخ ٣١ مارث (مارس) سنة ١٨٧٧ على (بروتوكل) أي مضبطة طلبوا فيها من الباب العالي عقد الصلح مع الجبل الاسود ، والتفرغ له عن نحو عشرين ناحية من املاك الدولة العلية لكون لسانهـم سلافيا ودينهم مسيحيا !!! كما طلبوا اجراء الاصلاحات الموعود بهـا تحت مراقبة الدول وإشرافها وغير ذلك ، وأبلغوا هذه المضبطة الى الباب العالي في ٣ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

جاء ناظر الخارجيـة الى مجلس المبعوثان وقرأ على أعضائه ترجمة البروتوكل وشرح لهم أحوال السياسة الخارجية وأفهمهم ان رد البروتوكل تكون نتيجتـه اعلان روسيا للحرب علينا ، وليس للدولة العلية عضد من بقية الدول كما كان لها في حرب القرم ، ولا نقود في خزينتها ، وكرر عليهـم ما قاله مدحت باشا في المجلس

*) تابع لما نشر في (ص ٦٤٦ ج ٩ م ١١) من رسالة محمد روحي افندي الخالدي العضو في مجلس المبعوثان عن القدس الشريف

العالي لدى مذاكراته في لائحة مؤتمر الاستانة ، وكانت اكبر الصعوبات من العسرة المالية ؛ وشدة الاحتياج الى التجهيزات العسكرية . فاعترض اكثر المبعوثين على قبول البروتوكل ، وأظهروا من الحماسة والغيرة الوطنية ما لا مزيد عليه ، وكان مبعوثو الارناؤط المجاورة بلادهم الجبل الاسود أشدهم اعتراضا ، وقام مبعوث الاكراد فقال ما ملخصه : تزعمون أن المالية في ضيق شديد فكيف يمكننا تصديق ذلك وأنتم في هذه البهرجة والالبسة الغالية والدور المفروشة بأحسن الاثاث والرياش والعربات والخيل المطهمة ؟ تعالوا الى عندنا في كردستان وانظروا بؤس العيش ومرارة الحياة التي نحن فيها !! لما كنت في بلادي لم يكن علي إلاّ ألبسة مرقعة بالية كبقية اخواني من أهالي كردستان ، ولما رأيتكم ترتدون أحسن الالبسة وتتألق على صدوركم النياشين المجوهرة خجلت من نفسي فاشتريت الثوب الذي ترونه عليّ من سوق الدلالين !! وأنا مرهق ، لا من المخازن الكبيرة وانا موسر ، واذا كانت سلامة الوطن والمحافظة عليه تقضي عليّ ببيعه فأنا أبيعه وأنا مغبوط وأعود الى ثوبي المرقع .

ثم قال الرئيس في ختام المذاكرة : هل يقبل المجلس ما جاء في البروتوكل لملاحظات ناظر الخارجية ؟ فرفض المجلس قبوله بالاكثرية ، وكانت الاقلية ثمانية عشر صوتا من الروم المبعوثين عن الروم ايلي ومن الارمن . فنظم الباب العالي نشرة مؤرخة في ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧ احتج فيها على بروتوكل لونده المنظم بدون اطلاعه وانضمام رأيه ، وقال : ان تكليف الباب العالي اجراء الاحكام على ما تقضي به هذا البروتوكل مخالف لاستقلال المملكة العثمانية الذي اقرته الدول في معاهدة باريس ، فقرئت هذه النشرة على مجلس المبعوثان فاستحسنها وأقرها وشكر الباب العالي على تنظيمها فأجاب عنها البرنس غورجاقوف في بطرسبرج بنشرة رفعها إلى الدول في ١٩ نيسان (ابريل) مضمونها : ان الباب العالي رفض اجراء الاصلاح الموعود به فصارت الحرب ضرورية لان روسيا مضطرة الى إيفاء واجباتها نحو الاهالي المسيحيين !!!

فأجاب الباب العالي بنشرة أخرى للدولة قال فيها : ان تركيا لا ترفض اجراء

الاصلاحات وانما ترفض الاشراف والمراقبة على اعمالها ، لان في ذلك غمطا لحقها وإزراء بشرفها وعبثا باستقلالها الذي اقرت عليه الدول الموقعة على معاهدة باريس. وصارت النشرات (سيركولير) والمحررات السياسية تتطاير من عواصم أوربا والانذارات (ميموراندوم) والمذاكرات تتساقط على السفراء ونظار الخارجية فلم يجد ذلك نفعا بل اعلنت الحرب في ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

مناقشات مجلس المبعوثان وانفضاضه

بحث المجلس بعد ذلك في لائحة نظام الولايات وتشكيل مجالس الادارة وذكر في اللائحة ان مجلس ادارة الولاية يتألف من ستة أعضاء ينتخب نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين ، فاعترض بعض المبعوثين على هذا التخصيص الذي هو داعية للتفريق ، وقالوا : إن القانون الاساسي أطلق على جميع الرعية اسم (عثمانيين) بدون تفريق بينهم في الدين والمذاهب ، وان الاكثرية في مجالس الادارة تكون من حق المسلمين ، لان الموظفين كالوالي والدفتردار (رئيس المحاسبة) والمكتوبجي ونحوهم أعضاء دائمون في مجلس ادارة الولاية ، وطلبوا إخراج المفتين من بين الاعضاء الدائمين لكونهم بمثابة الرؤساء الروحيين .

فقال الرئيس : ليس للمفتين صفة دينية كصفة الرؤساء الروحيين ، ورغم انتشار هذا الزعم الفاسد فالمفتي ماهو الا مأمور القانون أي المحامي عن القانون والشريعة ، وليس له سيطرة على المسلمين كسيطرة الرئيس الروحي على ابناء ملته ، وانما هو من علماء الحقوق المعروفين عند الافرنج باسم (Jurisconsulte) واعترضوا أيضا على تسمية (متصرف) فقالوا ان هذا الاسم مشتق من التصرف الدال على الاستبداد والاذلال والاستعباد ، فهو لا يوافق روح الحرية والمساواة . واستعلم بعض المبعوثين عن احوال معسكر الاناضول ونقصان التجهيزات العسكرية ، وعلى تعيين احد الخدمة قائمقام وقد كان (شوبقجي) اي حامل قصبة التدخين عند بعض الكبراء ، الى غير ذلك .

ثم اشتغل مجلس المبعوثان بتدقيق ميزانية المالية ، وطلبت الحكومة خمسة ملايين ليرة عثمانية للدخول في الحرب فتألف قوميسيون من احد عشر مبعوثا للتذرع بالوسائل المؤدية الى الحصول على المبلغ المطلوب . فحاولوا اقتراضه من إنكلترا على ان يكون لها في مقابل ذلك واردات مصر كما فعلوا قبلا فرفضت إقراضهم لان التأمينات غير كافية ، فقرروا عقد قرض داخلي بفائدة عشرة في المئة من واردات اصحاب الاملاك والتجار ، واخذ راتب شهرين من اصحاب الرواتب ، فصدق مجلس المبعوثان على هذا القرض وعلى كل ماطلبته الحكومة منه وختم جلساته في تموز (يوليو) سنة ١٨٧٧ فقال الرئيس: ارجعوا الى ولاياتكم وأعيدوا الانتخابات واجتهدوا بأن ترسلوا الينا مبعوثين او فر عقلا وأكثر وقوفا على ماتحتاج اليه البلاد !!!

فيرى من ذلك ان مجلس المبعوثان — على ضعفه وعجزه وجهل اعضائه في السياسة والادارة — لم يكن منه قصور أو تقصير في وظائفه ، ولم يحصل فيه اختلاف شديد بين المسلمين والمسيحيين ، وانما كانوا جميعا متفقين على مقاومة الاستبداد ومنع التعدي وتبذير الاموال ، وكل منهم عارف بمصالح بلاده الخاصة ، لأن معرفة ذلك لا تحتاج الى علم كبير أو رأي ثاقب لبداهتها ووضوحها كالشمس في رابعة النهار ، غير أن الواقفين منهم على مصالح الدولة العامة وسياستها الخارجية كانوا أقل من القليل ، والحكومة ابت ان تعترف لهم بحق ، بل نظرت اليهم نظر الوصي إلى الصبي !!!

الحرب الروسية العثمانية

استمرت الحرب الروسية العثمانية ثمانية أشهر (نيسان — كانون الاول سنة ١٨٧٧) وابرزت الجنود العثمانية فيها من الشجاعة والصبر والثبات والقوة مادلّ على حياة الامة وفتوتها وسلامة جسمها من اعراض الهرم أو المرض الذي يصفها به العدو ، ولكن نقصان التجهيزات العسكرية وسوء الادارة كانا سببا في انتصار الروس في أوربا وآسيا ، وتجاوزهم نهر الطونة (الدانوب) وجبال البلقان ، وأخذ القرص ومحاصرة ارضروم من جهة الاناضول ، وفتح بلفنا في الروم ايلي ، ولقد أظهر عثمان

باشا وعسكره من الشجاعة والمقاومة ما حير الروس وأوربا كلها فاعترفوا بفضلهم وقدروهم قدرهم « والفضل ما شهدت به الاعداء » ١٠ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٧

طلب مدحت باشا وانتخاب المبعوثان ثانية

استنزفت هذه الحرب ثروة البلاد واضعفت قوتها وافرغت صناديق الحكومة من الاموال ، لكثرة الإنفاق وانقطاع الوارد اليها من التكاليف والرسوم ، فتقرر إعادة التئام مجلس المبعوثان وطلب مدحت باشا من أوربا ، وعقد قرض لونده ، وعقد الصلح مع روسسيا ، فجرى انتخاب ثان بأمور (أوامر) مؤقتة لا كما يقضي نظام انتخاب مجلس المبعوثان

افتتاح مجلس المبعوثان مرة ثانية وخطاب السلطان فيه

افتتح مجلس المبعوثان مرة ثانية في يوم الخميس الواقع في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٤ و١٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٧ فذهب الوكلاء الفخام والوزراء الكرام والعلماء الاعلام واعضاء مجلس الاعيان والمبعوثان وسفراء الدول الاجنبية الى سراي بشكطاش واصطفوا على الصورة الآتية : فكان عن يمين الحضرة العلية السلطانيه أدهم باشا الصدر الاعظم ووكلاء الباب العالي ثم موظفو المجالس العالية ثم رؤساء المذاهب المختلفة ثم اعضاء شورى الدولة ومستشارو النظارات المختلفة وكثيرون من اعيان رجال العسكرية والملكية بحسب رتبهم ومقاماتهم ، وكان عن شمالها حضرات شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب أمير مكة المكرمة قبلا ثم العلماء من رتبة قاضي عسكر الروم ايلي والاناضولي ثم (الفريقان) الكرام وفريق من العلماء الاعيان . وكان اعضاء مجلس الاعيان أمام الحضرة العلية السلطانية من ناحية اليمين على صفين ، واعضاء مجلس المبعوثان امامها من ناحية الشمال على تسعة صفوف ، وفي الساعة السادسة على الحساب العربي دخل السلطان الاعظم وسلم الرقيم المشتمل على نطقه لسعيد باشا باشكاتب المابين فتلاه على الحاضرين وهو :

« يا أيها الاعيان والمبعوثان

« اني اكتسبت الممنونية بفتح المجلس العمومي وبمشاهدة مبعوثي الملة (الامة) — ثم ذكر الحرب مع روسيا والمحافظة على الملية أي القومية واللغات وحق المساواة وادخال غير المسلمين من الرعية في الجندية والمحافظة على القانون الاساسي واصلاح المالية والعدل في جباية الاموال الاميرية وتنظيم القوانين — وختمه بقوله :

« يا أيها المبعوثان

« ان ابراز الحقائق في المسائل القانونية والسياسية وضمان منافع البلاد يتوقفان على مجاهرة أرباب الشورى بأفكارهم بالحرية التامة ، وبما ان القانون الاساسي يقضي بذلك فانني لا أرى احتياجا إلى أمر أو ترغيب آخر »

مذاكرات مجلس المبعوثان

ثم انعقد مجلس المبعوثان في الدائرة الخاصة به تحت رياسة حسن فهمي افندي (وهو اليوم باشا من النظار) وشرع المبعوثون في المذاكرات والمباحثات بقية شهر كانون الاول (دسمبر) وكانون الثاني (يناير) وأوائل شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ وكثر الجدال بين المبعوثين و بين الحكومة — لا بين الاعضاء المختلفين بالدين واللسان — وطلب بعضهم التدقيق في حسابات المالية ، وحضور ناظرها لمناقشته الحساب ، ومحاكمة المرتكبين ، وسؤال المتهمين باختلاس الاموال الاميرية ، وسوء الاعمال المختلفة المتعددة ، وقام أحد المبعوثين وقال : إن الجاندرمة (فرسان الشرطة) في الولاية التي بعثت منها تنهب الاهالي ، والمحاكم ترتشي على إبطال الحق و إحقاق الباطل ، والضابطة تعذب المحبوسين بالضرب وأنواع العذاب . واعترض مبعوث آخر على المذابح التي جرت في بلغارستان وطلب التحقيق والبحث عنها . وطلب جماعة من المبعوثين عزل خمسة من الوكلاء : منهم محمود جلال الدين باشا وسعيد باشا وكجوك سعيد باشا ، والتحقيق عن كثيرين من رجال الدولة وقواد العساكر ، ولا سيما عن الاختلاس والاسراف في نظارة البحرية وغير ذلك .

إلغاء الصدارة واستبدال مجلس الوكلاء بها

بعد ذلك تولى الصدارة أحمد حمدي باشا المعروف في ولاية سوريا ، وذكر في فرمان التولية « إن اعتزال أدهم باشا مدة للاعمال كان مراعاة لصحته هذا مع التسليم بنزاهته ودرايته ، ونحن راضون عنه من كل الوجوه أتم الرضى . . » الخ . وبقي حمدي في الصدارة بضعة وعشرين يوما ، وفي غرة صفر سنة ١٢٩٥ و ٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ صدر الفرمان القاضي بإلغاء لقب (صدر أعظم) واستبدال رئيس الوكلاء به ، وتوجيه هذه الرياسة إلى أحمد وفيق باشا رئيس مجلس المبعوثان مع رتبة الوزارة ، وتعيين مسئولية (تبعة) الوكلاء أي النظار كما هي الحال في وزارات أوربا ، فحضر (الباش وكيل) الافخم الى مجلس المبعوثان وقال لهم ما ملخصه :

« إن جلالة السلطان الاعظم تريد في الحقيقة باطنا وظاهرا إدارة الملك كما تقضي احكام القانون الاساسي ، ولذا استبدلت رياسة الوكلاء بمسند الصدارة . فالوزارة الجديدة المؤسسة على قاعدة المسؤلية لا ترغب الا في سلامة الدولة وترقيها ، والوكلاء مستعدون للحضور دائما إلى المجلس عند الطلب ، ولكنهم يرجونه ان يقبل في بعض الاحيان وكلاء عن اعضائه لكثرة شواغلهم وحرصا على أوقاتهم !! »

فقام أحد المبعوثين وقال ما خلاصته :

« ان مجلس المبعوثان له الحق وحده ومن شأنه خاصة إحداث تغيير عظيم مثل هذا التغيير ، تقولون دائما انكم تريدون المحافظة على القانون الاساسي ، إذا فاحترموا حريتنا لأننا نحن الذين نمثل القانون الاساسي ونحافظ على احكامه ، وأنتم الذين تحاولون نقضه وإبطاله . . . » فأحيلت المسألة على قوميسيون مخصوص ليدقق فيها في ٥ شباط (فبراير) وكانت الحرب أوشكت أن تضع أوزارها ، وعسا كر روسيا استولت على أدرنه وتجاوزتها ، وطلبت اوستريا (النمسا) أن تجمع في فينا مؤتمرا من مندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس لتنقيح المعاهدة الجديدة بين تركيا وروسيا ، والتوفيق بين أحكامها وأحكام المعاهدات القديمة ، وبعثت

انكلترا بأسطولها الى بحر مرمره في ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨

المجلس العالي

تداخلت دول اوربا في المسألة الشرقية بعد ان تركن روسيا تفعل ما تريد في الحرب ، وعدن الى المناقشات والمحاورات — على عادتهن — في هذه المسألة واعتمد المابين على ما بينهن من الاختلاف واستغنى عن مجلس المبعوثان فألف في ١١ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ مجلسا عاليا من وكلاء الدولة ورجالها وأعيانها والرؤساء الروحيين ، وطلب من مجلس المبعوثان خمسة أشخاص : الرئيس ووكيليه وأحد مبعوثي الاستانه وهو الحاج احمد افندي كتخدا الاسترجية (الكشش) ومبعوث آخر يهودي ، فقال لهم الحاج احمد افندي ان طلبكم الآن رأينا في غير محله ، فقد كان يجب عليكم أن تسألونا قبل الخراب ، فمجلس المبعوثان يتنصل من كل تبعة تلقى عليه لامر وقع بغير علمه ، ولم يكن برأي من آرائه ، وكرر القول بأن المجلس يرفض كل تبعة في الحال الحاضرة .

تعطيل مجلس المبعوثان الى اجل غير مسمى

صمم السلطان الاعظم حينئذ على العدول عن سياسة والده الماجد السلطان عبد المجيد خان في عمل الاصلاح باطلاق الحرية والعمل بمقتضى أحكام القانون الاساسي ، وجنح لسياسة جده السلطان محمود خان في إعمال القهر والاستبداد ، مفضلا هذه السياسة اعتقادا منه أن الشعوب التي وضعها الله تحت يده لا يمكن تسييرها الا بالقوة !! . وكان حضر المندوب الروسي الى الاستانة فلم يسر بوجود مجلس المبعوثان لخلو بطرسبرج من مثله ، واستبداد القيصر برعيته ، ففي ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ قرأ الرئيس حسن فهمي افندي على المبعوثين منطوق الارادة السنية القاضية بتعطيل مجلسهم الى أجل غير مسمى !!!

استخذاء المبعوثين والامة لتعطيل مجلس المبعوثان واسبابه

خرج المبعوثون يتعثرون بأذيالهم ، وأنذرت الضابطة المتطرفين منهم المجسورين على التكلم وإيقاظ افكار الامة وجوب المهاجرة من الاستانة !

فذهب بعضهم الى الولايات العثمانية وبعضهم الى مصر والبلاد الاجنبية . ولم تقلق الامة أو تتأثر من هذا الاحتقار والامتهان ، ولا حصل منها هيجان أو اعتراضات ! كأنها جمل المحامل

يصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير

ولم يبق من المبعوثين من أصر على مبعوثيته الى آخر نفس من حياته الا أفراداً قلائل كمبعوث القدس الذي كان — بجراءته — يثبت على بطاقة الزيارة (كارت فيزيت) انه مبعوث القدس ، ويقدمها الى وزراء الدولة ورجالها لدى زيارته لهم في الاستانة ، والى سفراء الدول الاجنبية وموظفي نظارات الخارجية في أوربا . ولما اجتمع بصديقه خليل غانم مبعوث بيروت في الاجتماع الثاني للمجلس ومنشئ المقالات الرنانة في جريدة الدبيا وغيرها من جرائد باريس وذلك قبيل وفاتها — آخذه لكتابته في بطاقة الزيارة كلمة المبعوث السابق (Ex - Député) فمحا كلمة « سابق » لان صفة المبعوثية انما هي بارادة الامة وانتخابها ، فهي لا تزول عن صاحبها إلا بانتخاب آخر ، ومجلس المبعوثان لم يلغ إلغاء وانما عطل الى اجل غير محدود ، فكان اجتماعه في كل سنة من قبيل الممكنات الجائزة عقلا ونظاما . ولكن اكثر المبعوثين تناسوا وظيفتهم كأنها وظيفة حقيرة لا يؤبه لها وقد عزلوا منها ، ولم يجسر احد على ذكرها في ترجمة حاله الرسمية ، ولم يذكرهم بها مذكر ولا وعظهم واعظ !! ولا حررت في هذا الموضوع جريدة من جرائد المملكة العثمانية

ان لهذا السكوت والاستخذاء اسبابا كثيرة . منها ان الحرية امر تستحوذ عليه الامة بالغلبة والاستيلاء ، وليست مما ينعم به انعاما أو تعطى جزافا ، ولقد كانت الامة حينئذ منهوكة القوى مكسورة الجناح بسبب الحرب ، لا دار الا وفيها مأتم ، ولا اسرة الا وقد أصابتها مصيبة . وزاد البلاء بسبب البحران المالي ، ونزول قيمة المسكوكات (النقود) فكانت الاسرة تبعث خادمها الى السوق ليشتري القوت الضروري فيعود اليها خاوي الوفاض لعدم رواج النقود ، فتطوي على الجوع وتتفتت اكباد الوالدين

لبكاء اطفالهم . ثم ان الامة هي عبارة عن أهل العاصمة منبع الاستبداد وأهالي الولايات والقرى ، والعساكر المنظمة المدربة على الحرب ، المسلحة بالاسلحة الجديدة والمدافع ، فأما أهل الاستانة ولا سيما المسلمون فانه لا يتصور قيامهم لطلب الحرية لان جلهم — ان لم نقل كلهم — موظفون أو عائشون في ظل الموظفين ، والعساكر المسلحون واقفون لهم ولاهل الولايات بالمرصاد وقادرون على إخماد نار اية ثورة أو مظاهرة وان قيام طائفة مسيحية وحدها لطلب الحرية مما لا يرضى به المسلمون ولا بقية الطوائف المسيحية واليهودية كما شاهدنا ذلك في أرمينيا ومقدونيا التي اشتدت فيها المناقشة بين الروم والبلغار والصرب والرومان ، كما أن العساكر وحزب الاحرار العقلاء لا يرضون به لان قيام كل ملة على انفراد يقضي بتقسيم الممالك وتفريقها وضعفها وإثارة اضغان العداوة الموروثة من الحروب الصليبية والقرون المتوسطة المظلمة على ان هذا القيام كان مصدره الكنائس والاديار بإيعاز الرهبان والقسيسين والمبشرين والمرسلين ، فكان سببا لايجاد المذابح والفظائع ومداخلة الاجانب .

أما حزب تركيا الفتاة الذي أسسه مصطفى فاضل باشا وخليل شريف باشا فانه لم يكن في عهد مدحت باشا الافئة قليلة من صغار الموظفين وضباط العساكر والمتعلمين في المدارس الجديدة ، والذين درسوا شيئا من اللسان الفرنساوي أو الانكليزي ، واشتهروا باسم « انكلز » لتعلمهم الانكليزية فقط مثل : انكلز سعيد باشا ، انكلز كريم افندي ، انكلز علي بك والد أحمد رضا بك روح هذا الانقلاب ، أو الذين أصلهم من الاوربيين فأسلموا ودخلوا في الوظائف ، مثل عمر باشا المجري ، ونوري بك ابن المركي دوشاتونيف الفرنساوي وكثير غيرهما أو الذين تزوجوا بنسوة أوربيات وربوا أولادهم تربية أفرنجية أو غير ذلك ، فكانت هذه الفئة متحدة بالفكر في إعجابها بالمدنية الاوربية وميلها اليها ولم تكن لهم جمعية ولا رابطة غير الرابطة المعنوية الفكرية ، لانهم من موظفي الحكومة والوظائف تضطرهم الى إخفاء الرأي وإطاعتهم لآمريهم إطاعة يفرضها العقل والسياسة والا كانت الامور فوضى ولكن الجامدين من المسلمين لم

يفرقوا بين الدين المسيحي والمدنية الاوربية ، واعتبروا كل إصلاح صدر من أوربا المسيحية مخالفا للدين والآداب الاسلامية ، وشتان ما بين المدنية الاوربية والدين المسيحي ،

سعاوي افندي وحادثة جراغان

على ان بعض المتطرفين من حزب تركيا الفتاة ثاروا بزعامة علي سعاوي أفندي ، وكان من طلاب العلم المعروفين بالصوفتاوات ، مطلعا على العلوم العربية والفنون الرياضية ، وواقفا على الافكار الجديدة . نفي في أيام السلطان عبد العزيز وصدارة عالي باشا ، وفر الى باريس ولوندره ونشر ثمة الرسائل والمقالات ، وكان ينفق على نفسه فيهما مما ينفحه به بعض رجال الاستانة ، ثم عاد اليها وصار من حزب مدحت باشا انصار القانون الاساسي ، وعين مديرا للمكتب السلطاني ثم عزل ، فاتفق مع صالح بك الارناؤط احد الضباط وجماعة من المهاجرين فكانوا زهاء مئة رجل ، وهجموا على سراي جراغان لاخراج السلطان مراد منها ومبايعته ، واسترداد الحرية والقانون الاساسي ، ففاجأتهم العساكر بالسلاح فشتت شملهم . وكانت هذه الحادثة في ١٣ مايس (مايو) سنة ١٨٨٧ زمن رياسة صادق باشا لمجلس الوكلاء

صدارة رشدي وصفوت وخير الدين التونسي

لبث احمد وفيق باشا (باش وكيل) لمجلس الوكلاء مدة قليلة ، ثم وجهت الى صادق باشا فبقي فيها تسعين يوما ، ثم استبدلت الصدارة (بالباش وكالة) وعين فيها رشدي باشا ودام فيها ثمانية أيام ، ثم عين لها صفوت باشا ناظر الخارجية فاكتسب فيها ثقة الحضرة السلطانية ولم تطل فيها مدته ، وعين لها خير الدين باشا الجركسي الاصل والتونسي النشأة ، وهو مؤلف التاريخ العربي « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » وله وقوف على العلوم العربية وعلى الفرنساوية ، وتجول في ممالك أوربا ، وقد طلب منها في سنة ١٢٩٤ هـ كما طلب السيد جمال الدين الأفغاني وغيره ، وعين رئيسا لشورى الدولة ثم (صدر اعظم) سنة ١٢٩٥ وبقي في الصدارة ثمانية أشهر ، ثم استقال وبقي

حلس بيته الى أن توفي سنة ١٣٠٧ في الاستانة. فكان في طلبه وتوظيفه شبه ميل الى سياسة (بانسلاميزم) ولكن هذه السياسة لها معنيان: المعنى القديم الاستبدادي الذي مشى عليه خلفاء بني أمية والعباسيين، وهو مخالف لحقيقة الاسلام ومناف لروح العصر الجديد والمدنية الحاضرة — والمعنى الحديث وهو يوافق أصل الاسلام والمدنية، ولكنه يخالف مسلك المستبدين بالامر، ويحول بينهم وبين مآربهم، وهو اشد وطأة عليهم من القانون الاساسي وحزب تركيا الفتاة.

صدارة كجوك سعيد باشا واعماله

ثم عين لمسند الصدارة سعيد باشا المشهور بسعيد باشا الصغير (كجوك سعيد) تمييزا له عن سميه ناظر الداخلية الكردي الاصل والمتوفى قبل بضع سنين. وكان سعيد باشا الصغير محررا في جريدة «حوادث» فاتصل بالداماد محمود جلال الدين باشا ودخل بوساطته المابين وصار باشكاتب له، وهو المتسبب في إبعاد مدحت باشا وتعطيل احكام القانون الاساسي، وإعلان الحرب، وعزل القائد (السردار) عبد الكريم باشا وإخلائه موقع (بليفه) امام بلفنا، ومداخلة المابين في إدارة جميع الشؤون العسكرية، واصدار الامور من السراي السلطانية اثناء الحرب، وتقسيم المملكة العثمانية في معاهدة سان ستفانو التي نقحتها معاهدة برلين..الخ فان الارادات السنية في جميع ذلك كانت تصدر برأي سعيد بك باشكاتب المابين وتوقيعه، ولهذا كان مبغوضا من حزب تركيا الفتاة لانه كان آلة وعونا على الاستبداد، وعلى ادارة المصالح بدون رأي الباب العالي. مع أن باشكاتب المابين كان لذلك العهد ينتخب من قبل الصدارة العظمى، وكان الصدور لا ينتخبون لهذه الوظيفة الا الذي يعتمدون عليه لعرض المضابط والمقررات والانهاآت واستصدار الارادات السنية بها، ولم يكن للباشكتاب نفوذ معارض لنفوذ الباب العالي صاحب التقاليد والاصول المرعية في ادارة المملكة، ولا سيما في أيام رشيد باشا وفؤاد باشا وعالي باشا، فلما توفي عالي باشا وتولاها محمود نديم تدنت اهميتها بسبب نفاقه وتملقه للمابين وتقديمه اموال الخزينة اليه بغير عد ولاحساب. ولما ولي سعيد باشا الباشكتابة زالت اهمية الصدارة بتة، وانحصرت

الاعمال والادارة في المابين ، وصار للباشكاتب نفوذ يمكنه ان يطلب مدحت باشا الصدر الاعظم الى المابين و يبلغه الارادة القاضية بنفيه على الباخرة عز الدين !!

تولى سعيد باشا الصدارة بعد مدحت واشتهر بالنزاهة والاستقامة ، فلم يسمع عنه ارتكاب ولا انهماك في جمع الاموال وادخارها ، ولهذا كان أقل الصدور ثروة ، وكان شديد السطوة على المرتكبين ، كثير البطش بهم والاستبداد فيهم ، ولكنه عادل في احكامه وعقابه . وفي زمن صدارته وضع نظام المعارف ، وأسست المدارس على النسق الجديد ، وصار للمعارف إيرادوافٍ من واردات الحصة التي أضيفت الى الاعشار ، ونظمت نظارة العدلية وأصول المالية ، وأسست إدارة الديون العمومية ، و بوشر في مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح الطرق والمعابر ، من دون ان يؤدي اعطاء امتيازاتها الى ارتكاب فاحش . فكان أصلح الصدور في الدور الاخير ، ولم ينتقد عليه حزب تركيا الفتاة الا استبداده ومقاومته مشروع مدحت باشا وتوقيف أحكام القانون الاساسي وجميع ما صنعه وهو رئيس كتاب المابين ،

لم يصد سعيد باشا كونه من رجال الكامريلا — لانه نشأ وتربى في المابين — ان يحاول الاستقلال في وظيفته واعلاء شأنها ورفع مكانتها ، وتمشية المصالح بالعدل على قاعدة مطردة وأصول منظمة ، كما كانت عليه في زمن عالي باشا . فأصبحت بذلك أعمال سعيد باشا موضعا للريبة ، وكثرت الوشايات به فصار مبغوضا منفوراً منه ، ووضعت عليه العيون والجواسيس ، وصارت أعماله تراقب مراقبة دقيقة فأحدث قلم للترجمة في المابين وانجمن التفتيش (مجلس التفتيش) والمعاينة في نظارة المعارف لمراقبة الكتب المطبوعة والتدريس ومصادرة المضر منها (١) على زعمهم وبحسب اصطلاحهم ، وقلم مراقبة المطبوعات الداخلية والاجنبية في الباب العالي . هذا ماعدا دوائر وشعب الخفية (الجواسيس) المتعددة المحدثة التي مركزها في المابين تحت نظارة السرخفية (رئيس الجواسيس) فهذا الذي قضى بسقوط سعيد باشا في الحقيقة والواقع فذهب بإصلاحاته ادراج الرياح ، وان كان عزله في الظاهر بسبب احتلال البلغار للروم ايلي الشرقية ، واصراره على ارسال العسا كر كما تصرح بذلك معاهدة برلين ،

صدارة كامل باشا الصدر الحالي

تولى الصدارة كامل باشا الصدر الحالي بعد سعيد باشا ، ومولده في جزيرة قبرص ومرباه في مصر ولهـذا نسب اليها ، وله معرفة باللغات الاجنبية وبإدارة الدولة ، لانه تقلب في جميع وظائفها ، فمن قائمقام الى متصرف الى والٍ الى ناظر ، ولكنه في نظر تركيا الفتاة كان أقلَّ شهرة من كثيرين من الوزراء والرجال الموجودين إذ ذاك . واستمرت صدارته ست سنوات وهو آلة في يد المابين ، مطيع لما يلقي عليه من الامور ، ثم ظهرت شجاعته فعارض وعاند ، فأصابه ما أصاب سلفه سعيد باشا من سوء الظن به ، والريبة في أعماله وشؤونه مما قضى بفصله

صدارة جواد باشا وضعف الدولة

تولي الصدارة جواد باشا وبل ذلك بالاستغراب العام ، ولم يكن يخطر تعيينه ببال ، لانه من أمراء العسكرية وهو صغير السن غير متمكن من اختبار الادارة الملكية ، على انه كان من الناشئة الجديدة ، وتخرج في المدارس العسكرية ، وربما كان الغرض من تعيينه هو الإيهام بالعود الى الاصلاح واطلاق الحرية ، ولكنه في الحقيقة لم يكن قائمًا بوظيفة الصدارة بل كان ياورا للحضرة السلطانية مكلفا بتنفيذ الامور التي تلقى اليه ! ! ، كما كان رئيس الوزارة الالمانية ياورا للحضرة الامبراطورية ولكنه غير مسؤول امام الريشستاغ ! فلم يبق بعد ذلك شأن للصدارة ، واستولى رجال المابين على الشؤون كافة ، وصار في يدهم العزل والتوظيف والحل والربط وإعطاء الامتيازات بمد الخطوط الحديدية واستخراج المعادن وسائر الامور النافعة ، وكانوا يتناولون الرُّشى من وراء ذلك بصورة فاحشـة . واستولوا على الاوقاف ، ووسعوا نطاق الخزينة الخاصة بانتزاع المتلكات من أيدي أصحابها بالثمن البخس ، وإقامة الموظفين فيها يعارضون بنفوذهم موظفي الحكومة ونفوذها ، حتى أصبح المابين حكومة صغيرة قوية ! ! داخل حكومة كبيرة ضعيفة ! لان مركز الحكومة نقل من الباب العالي الى سراي يلديز السلطانية ! !

الجاسوسية في الدولة العلية

ضعفت إدارة الدولة وجعلت تتدهور بسرعة الى دركات التأخر والانحطاط، بعد ان خطت خطوات محمودة في سبيل التقدم أيام صدارة سعيد باشا ، وانقطع أمل الاحرار العثمانيين وخاب رجاؤهم بعد ان كانوا يؤملون تخليص الدولة والمملكة من المرض الذي منيتا به قديما . فاضطهد هؤلاء الاحرار واهينوا وعوملوا اسوأ معاملة ، حتى ذاقوا أشد العذاب الوجداني والأدبي، وصار أرباب الدناءة والفساد يتقربون الى المابين بالتملق والوشاية والتجسس على إخوانهم وأعمامهم وآبائهم ! ومنهم من تجسس على أمه وأخيه فنفيا من الاستانة ، فكانوا — بمفترياتهم — يصورون الرعية الصادقة للسلطان الاعظم كالوحوش الضارية تريد افتراسه ونزع تاجه ، ويزينون في عينيه الاستبداد ، ويبعدون عنه الخبيرين بأمور الدولة العارفين بطرق الاصلاح ، زاعمين انهم من ذوي الافكار المتطرفة وحزب تركيا الفتاة ؛ حتى اختل نظام المملكة ، وبطلت مراعاة الاحكام القانونية ، والسير في إدارة الدولة على الأصول والتقاليد المعروفة من القديم ، وفسد التعليم في المدارس ، وانحرفت ادارة الامور الداخلية والخارجية عن محورها ، ومالت الى التدلي والانحطاط ، رغم الابهة الظاهرة ، والعظمة الكاذبة ، ولا سيما في موكب صلاة الجمعة اذ تصطف العساكر في ساحة المسجد الحميدي امام باب السراي صفوفا مضاعفة بعضها وراء بعض رجالا وفرسانا ، وتتسابق مركبات الكبراء والسفراء الاجانب ، ثم تشرق المركبة السلطانية من مطلع السراي وهو المشيرون وكبار رجال المابين حافون من حول المركبة مشاة تخشع الابصار ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الإمامية ، وهم في غير هذه الساعة أكاسرة الفرس وقياصرة الرومان كبرا وجبروتا ، وكلهم في أمواج الملابس الذهبية يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الابصار . وكان في كل نظارة من نظارات الداخلية والعدلية (الحقانية) والمالية والمشيخة الاسلامية وغيرها رجال معروفون يبيعون الوظائف والرتب بأسعار معلومة ، ويقتسمونها هم وكبار الموظفين ، فمن اشترى وظيفة بمئة

اميرة فأكثر فانه يجتهد في استغلاله منها اضعاف ما بذله بإرهاق الاهالي وظلمهم أو اختلاس الاموال الاميرية أو بكليهما !!

الميل عن انكلترا الى المانيا . الحوادث الارمنية

انحرفت سياسة المابين عن انكلترا الملحة في طلب القيام بالاصلاحات وتغيير الادارة المستبدة الظالمة ، واتجهت نحو المانيا التي لا ترى بأساً في ادارة الدولة بالقسر الاستبدادي ، فجنح بعض ساسة الانكليز للارمن ومالوا اليهم ، وساعدوا جمعيتهم السرية التي في لوندره ، واشار عليهم بعض رجال السياسة كغلادستون بالقيام والهيجان حتى اذا حدثت في البلاد مذابح كمذابح البلغار هاجت الافكار العمومية في أوربا ، وتسنى لحكوماتها المداخلة في طلب الامتيازات لارمينيا ، كما حدث في البلغار والجبل الاسود والصرب . ويساعد على ذلك نص المادة الحادية والستين من معاهدة برلين فقد جاء فيها ما معناه « يتعهد الباب العالي بأنه يسرع في القيام بالاصلاحات والتحسينات التي تقتضيها حال البلاد الداخلية في الولايات الآهلة بالارمن ، وبحمايتهم من الجراكسة والاكراد ، ويعطي الباب العالي في معظم الاوقات معلومات عن التدابير المتخذة في هذا السبيل للدول المشرفة على القيام بالاصلاحات »

وفي سنة ١٨٩٠ تشكلت جمعية انقلابية ارمنية (١) لتحرير الارمن التابعين للدولة العلية وروسيا والعجم ، وكان رأس مالها مئة وثلاثين الف فرنك ، وميزانيتها اليوم مليون فرنك ، منها ثلاثون في المئة للقيام بالحركات الانقلابية والسياسية ، وخمسة وعشرون في المئة لتسليح الامة ، وعشرون في المئة للنشرات والتبشير . فأحس احرار العثمانيين بذلك وتأثروا جداً ، فاجتمعوا سراً وتشاوروا ، وخابر بعضهم كبراء الارمن وعقلاءهم وقالوا لهم ما حاصله :

لا محل لاصلاح ولايات ارمينيا وحدها دون باقي الولايات العثمانية ، فالواجب طلب الاصلاح للمملكة العثمانية كلها . نعم ان الارمن يتألمون من الادارة الحاضرة ولكن الظلم والاستبداد ليسا موجهين اليهم خاصة ، بل هما شاملان للارمن

(١) في سنة ١٨٨٧ تألفت جمعية هنجاق الارمنية ومعنى اسمها الجرس

والاتراك وعموم المسلمين والمسيحيين ، فانهم جميعهم يئنون تحت اثقال التكاليف وارتكاب الموظفين ومعاملاتهم القسرية والاستبدادية ، ويتحملون انواع الظلم والاعتساف وهضم الحقوق . وحظ المسلمين من ذلك اكبر ، لقيامهم وحدهم بإعباء الخدمة العسكرية التي تقعدهم عن زرع الارض واكتساب الثروة والرفاه والنمو والازدياد في العدد ، وان اتفاق الارمن والاتراك على القيام بطلب الاصلاحات اللازمة وتأسيس حكومة مقيدة حرة يعد من الحمية والغيرة الوطنية ، ولكن قيام الارمن أو طائفة أخرى على انفراد بمساعدة الاجنبي وترغيبه لا تعده تركيا الفتاة إلا خيانة وجناية وضررا بمنافع الوطن المشتركة . على أن الارمن كانوا لدى تجنسهم بالجنسية العثمانية لا يزيدون عن بضعة عشر الفا وقد أصبحوا اليوم يعدون بالملايين وان القاطنين منهم في العاصمة والمدن الكبيرة على جانب عظيم من الغنى والثروة والرفاه ، وبيدهم الشؤون المالية والوظائف العالية والرتب السامية وهم على وفاق وائتلاف تام مع الاتراك حتى اذا أطلقت كلمة « ملت (١) صادقة » لا تنصرف إلا الى الارمن . فبناء على هذا الامتزاج التام بين الترك والارمن وما فيه من الفوائد والمنافع للفريقين طلب بعض احرار الترك من معتبري الارمن وعقلائهم إفهام الجمعيات السرية الارمنية التي في أوربا هذه المقاصد ، واستعمال نفوذهم لتعديل المطالب الارمنية ونبذ التهور في سياستهم

وفي سنة ١٨٩٤ اشتعلت نيران الحادثة الارمنية وحصلت مذابح ساسون وخربت ثلاثون قرية من قراهم . كل هذا وجواد باشا الصدر الاعظم لاه عن اتخاذ الوسائل لحسم هذه المسائل ، والقيام بالاصلاحات في جميع ارجاء المملكة ، ولقد كانت سياسته محصورة بالتدابير المؤقتة لايقاف الاعتداء وسلوك سبيل المماطلة والإرجاء ، واوربا — ولا سيما انكلترا — واقفة للدولة بالمرصاد ، تخلق لها المسائل والمشاكل واحدة بعد أخرى . فمن الحادثة الارمنية

(١) المنار : يراد بكلمة « ملت » عند الترك الامة ، والملية هي القومية فكل مايرد في هذه الرسالة من هذه الكلمات ينصرف الى ما ذكر ، على اننا وضعنا عند معظم الكلمات التركية التعبير كلمة عربية بين قوسين تفسيرا لها

الى المشكلة الكريدية الى المسألة المقدونية وهلم جرا . . . ورجال المابين اكثرهم جهلاء أغبياء ، لا خبرة لهم بالسياسة ، ولا معرفة لهم بالشؤون الحاضرة . وقليل منهم شياطين ابالسة لا يتدأبون الا على جمع الاموال وادخارها . ولو ادى ذلك الى خراب الوطن وسقوط المملكة . فكانوا يخوفون السلطان من حزب تركيا الفتاة ومن القيام بالاصلاحات . ويشيرون باتخاذ التدابير السيئة حتى حدث ما حدث من المذابح والفظائع التي نسبت الى الاسلام ، والاسلام بريء الى الله منها :

والدين انصافك الاقوام كلهم　　وأي دين لآبي الحق ان وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصعبة　　للخير وهو يقود العسكر اللجبا

تأسيس جمعية الاتحاد والترقي

كان من نتيجة هذا الخلل في الادارة والاستبداد والعسف بالامة أن تأسست في الاستانة جمعية الاتحاد والترقي لاخماد نار الفتن المشتعلة في البلاد ، وطلب الحرية والعدل لجميع العثمانيين وتأييد روابط الحب والامان بين الامـة — المؤلفة من السنة وأديان مختلفة — وبين الدولة . وقد بعثت الجمعية في تلك السنة (١٨٩٤) فريقا من الشبان الاحرار — أكثرهم من طلاب المدرسة الطبية — الى باريس ليؤسسوا فرعا للجمعية فيها ويقوموا بنشر الجرائد والرسائل . وكان في باريس اذ ذاك عدد ليس بالقليل من الشبان العثمانيين ، بعضهم يدرس على نفقة الحكومة العثمانية او نفقته الخاصة ، وبعضهم يدرس ويشتغل بالمسائل السياسية وأشهرهم احمد رضا بك صاحب اللائحة المشهورة .

احمد رضا بك ومبادىء جمعية الاتحاد والترقي

ولد أحمد رضا بك في الاستانة منذ خمسين سـنة تقريبا ووالده انـكليز علي بك وأمه مجرية ، وسمي انـكليز لتعلمه الانـكليزية ووقوفه على المدنية الاوربية كما مر بيانه ، والا فهو من الاتراك المسلمين وكان من معتبري الموظفين الذين نشأوا في عهد مصطفى رشيد باشا وعالي باشا . فتخرج أحمد رضا بك في مدارس الاستانة

وعين مديرا المدرسة الاعدادية في مدينة بروسه فأحس من نفسه بلزوم السفر الى أوربا للاطلاع على علومها ومدنيتها فذهب الى باريس سنة ١٨٩٠ واختلف الى مدرسة الزراعة لشدة احتياج المملكة الى العلوم الزراعية ، وتعرف الى علي شفقي بك الذي كان يصدر جريدة « استقبال » في ايطاليا ثم في فرانسا، وهو من رجال السلطان مراد . وكان رضا بك كثير التردد على المكتبة الاهلية في باريس فاطلع فيها على أهم الكتب والفنون ، واشتغل بالمسائل السياسية ، وحرر لائحة مفصلة مشتملة على رسائل في إصلاح الادارة والمالية والزراعة والتجارة وغير ذلك بعد ان درس لائحة مصطفى فاضل باشا ووصية فؤاد باشا وما حرره ملكوم خان وشارل ميزمر وغيرهما من أكابر الرجال المشتغلين بالسياسة الشرقية والواقفين على أسباب الانحطاط وعلله الفلسفية .

سلك احمد رضا بك في الفلسفة الحقيقية مسلك أوكوست كونت وخليفته بيير لافيت ، وصار إماما في هذه الطريقة المؤسسة على « النظام والترقي » وهذه الكلمة هي شعارهم وعليها بناء أعمالهم ، ومن مبادئهم التفاني في حب الوطن وخدمة الجماعة ، أي وقف حياة الفرد على خدمة المجموع ، وهم ينفرون من الانغماس في الشهوات وتبذير الاغنياء لان المبذرين إخوان الشياطين ، ويشددون النكير على الذين يبتزون الاموال الاميرية ويأكلون أموال الناس بالباطل ويعبثون بالحقوق العمومية ، فالمرتكب الملوث بالرشوة يعدونه ساقطا مهما بلغ علمه وقدره . فأحمد رضا بك متصف بكل هذه الخلال الجليلة ، وقد ضحى نفسه وشبابه في سبيل المحافظة على مبدأه ، ورفض قبول الالوف من الدنانير وهزىء بالمناصب العالية التي كانت تعرض عليه ، مع شدة حاجته واضطراره ، وتحمل الاذى والمكاره ، وجاهد في سبيل استرداد الحرية حق الجهاد قائلا : لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي لما تحولت عما قصدت اليه . فكان بالحقيقة من اولي العزم الصادق ونشر تعاليمه وأفكاره وله رسالة مطبوعة بالفرنساوية عنوانها « التساهل الديني » رد فيها على الذين يتهمون المسلمين بالتعصب ، واستدل بكثير من الآيات القرآنية

والاحاديث النبوية مما دل على غزارة علمه . واما اللائحة التي مر ذكرها فهي رسالة باللغة التركية مشتملة على تحقيق وعلم وسياسة في اصلاح إدارة الدولة ولما تنشر . وكانت جريدته « مشورت » تصدر بالتركية والفرنساوية في كل أسبوع أو أسبوعين مرة ، ثم اقتصر على القسم الفرنساوي وهي صغيرة الحجم مضى على إنشائها أربع عشرة سنة ، ويتألف منها مجلدان أو أكثر ، وربما كان له غير ذلك من المؤلفات . فانه كثير الدرس والتحقيق ، يقضي الساعات الطويلة في المكتبة الاهلية ، وفي مكتبته الخاصة مؤلفات كثيرة في التاريخ والسياسة العثمانية والمسألة الشرقية

ولما وصل وفد جمعية الاتحاد والترقي الى باريس سنة ١٨٩٤ كان رضا بك ساكنا في شارع مونج في بيت صغير (Appartement) في الطبقة السادسة فقصد اليه الوفد وذاكروه في انضمامه اليهم ، فتردد في بادئ الامر وقال اذا عزمت على شيء فانني لا أرجع عنه مطلقا . وكان أقدر الموجودين وأعرفهم بطرق الاصلاح ومواضع الخلل . لأن إصلاح مملكة عظيمة مشتملة على أمم مختلفة في الجنس والدين واللسان ، ووارثة للخلافة الاسلامية والدولة البيزنطية — ليس بالامر السهل ، ولا يشبه اصلاح مدرسة أو ادارة تلاميذ وانما يحتاج الى علوم ومعارف شتى ونظر واختبار ونفاذ بصيرة ، وليس ذلك في مقدور من درس سنتين أو أكثر في مدرسة طبية لا تدرس فيها العلوم السياسية والحقوقية ولا العلوم الشرقية التي هي موضوع بحث العلماء المستشرقين . فقبل أحمد رضا بك الانضمام الى الجمعية وصار رئيسا لفرع باريس ، ونشر جريدة « مشورت » بالتركية والفرنساوية ناطقة بمقاصد الجمعية

مماكسة المابين للاحرار في اوربا

أمّ باريس من ذلك الحين كثيرون من شبان العثمانيين وكهولهم حتى الشيوخ ذوي العمائم والفراء ، ونشروا الجرائد والرسائل والوريقات ، وادبوا مآدب وعقدوا اجتماعات سياسية . فانصرفت همم رجال المابين والسفارات العثمانية الى إبطال هذه النشرات واسترضاء اصحابها بالمال والرتب والنياشين والمناصب ، حتى قيل لبعضهم « اطلب تُعط » كما ينقل عن الخلفاء في حكايات الف ليلة وليلة . وكان العطاء حاتميا

بل أكثر ، كان سلطانيا شاهانيا !! وصار طلاب الوظائف أو المعزولون يقصدون باريس فيكون ذلك سببا لعودتهم الى وظائفهم . ودخل في حزب تركيا الفتاة الصبيان الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة ، والتونسيون حتى الاجانب من الطليان واليونان ، وأصبحت سفارة باريس مرجعا للجميع كأنها أعظم دائرة من دوائر الباب العالي !! - واقدم الجرائد التي ابطلت جريدة المرصد العربية التي تعين صاحبها عضوا في شورى الدولة ، فحسده عزت باشا العابد حتى صرف قوة عقله وذكائه في سبيل الوصول الى ما وصل اليه . وظهرت عدة جرائد ورسائل ومحررين بالتركية والعربية والكردية والفرنساوية والالبانية وغيرها ، منهم أصحاب صدق وقناعة ، ومنهم ذوو طمع وشعوذة - ورجال الدولة يتقربون باسترضائهم واحضارهم كما كانوا في الازمان الماضية يتقربون بجلب أهل الظنة من الشيوخ وأصحاب الكرامات كالمرحومين الشيخ ابي السعود من القدس الذي استقدموه للسلطان محمود خان ، والشيخ السن من صيداء والشيخ العمري من طرابلس الشام ، وكذا المشايخ الذين كانوا في المابين وخاتمهم استاذنا الشيخ حسين الجسر مؤلف الرسالة الحميدية . فلو اطلعت على تراجم هؤلاء الشيوخ ومقدار معارفهم وكيفية طلبهم والاسترشاد بهم لعرفت ارتقاء الفكر التدريجي الذي حدث من عهد السلطان محمود ، ولرأيت للانقلاب الحاضر معنى في الرسالة الحميدية التي دلت على كثير من العلوم الطبيعية والعصرية

لم يقصد من نشرات تركيا الفتاة في أوربا الا ايصال الشكوية من سوء الادارة الى مسامع الحضرة السلطانية ، وافهام الدول الاوربية الموقعة على معاهدة برلين بأن لحزبهم السياسي كيانا ووجودا وان غايتهم اعادة القانون الاساسي ، فكادت أوربا تعتد بوجودهم كما ظهر من انتصار الجرائد الباريسية لصاحب جريدة « مشورت » يوم محاكمته في باريس والحكم عليه بفرنك واحد مع تطبيق قانون بيرانجه القاضي بالتسامح عنه . وبينما كان المابين يقدم رجلا ويؤخر أخرى في اجابة حزب تركيا الفتاة الى مطالبهم الاصلاحية واعادة القانون الاساسي واذا بالمشكلة الكريدية ولدت الحرب بين الدولة العلية واليونان (نيسان - مارس ١٨٩٧) وتم النصر فيها للعساكر العثمانية فأخذته العزة ودام على سياسته الاستبدادية وقعدت همة الاكثرين

من حزب تركيا الفتاة فخضعوا لاحكام الاستبداد جبرا وقهراً وان كانوا غير راضين عنها ، وذاقوا عذابا شديدا بسبب غلاء أوربا وكثرة الانفاق فيها مع قلة ذات يدهم وفراغهم من نحو صناعة أو تجارة بأيديهم كما هي حال الارمن والبلغار ، الا ما كان من علمهم باللغة التركية أو العربية ومعاونة الاطباء في المستشفيات بأجرة قليلة والسهر في الليل على المرضى . والاغنياء من أهل البلاد وكبار الموظفين لم يساعدوهم بشيء ، الا بعض الامراء المصريين الذين نهجوا نهج مصطفى فاضل باشا مؤسس حزب تركيا الفتاة ، فانهم أمدوا بعضهم بالاموال وكانوا عونا لهم . اما الجمعيات الارمنية والمقدونية الانقلابية فان أصحابهم وأغنياء أمتهم أعانوهم بالمال وأيدوهم بكل ما في طوقهم ، وقد علمت مما تقدم ان ميزانية الجمعية الارمنية بلغت مليون فرنك فأين هذا من جمعية الاتحاد والترقي ؟ الا ان سبب خذلان العثمانيين لجمعياتهم هو موت النعرة الوطنية في نفوسهم وفقد الحماسة القومية وكونهم لم يفقهوا معنى الاجتماع والتعاون .

غرور المابين واستفحال الاستبداد

اظهرت الحرب اليونانية العثمانية قوة الامة العثمانية وحيويتها وسلامتها من عوارض المرض أو الهرم كما يصفها أعداؤها ، وظهر فيها من شجاعة الضباط العثمانيين ومعارفهم ومحافظتهم على قواعد النظام الحربي ومقدرتهم على ضبط أفراد العساكر وكفهم عن النهب والعبث بالآداب وغير ذلك من الافعال المعجبة ما يخلد لهم هذه المآثر في بطون التواريخ ، وابرز الجيش العثماني من الشجاعة العظيمة والصبر والقناعة المعجب والمعجز ، وامتاز بالسلامة من الابتلاء بالمسكرات كما هي عليه عساكر الروس وغيرهم من عساكر أوربا

وزاد غرور المابين واستبداده بعد خروج الدولة من ميدان الحرب فائزة منصورة ، وانتقل مركز ادارة الحكومة من الباب العالي الى سراي يلديز وأصبح مجلس الوكلاء لا عمل له ، والنظار لا وظيفة لهم الا تنفيذ ما يقرر في السراي . على ان الالتفات والاقبال والتقريب والنفوذ كان ينتقل من الباشكاتب الى الكاتب

الثاني الى كاتب الشفرة (١) الى (الشيخ) الى (العابد) الى (الملاحمة) الى غني آغا الى لطفي آغا الى فهيم باشا الجبار الباقي — أولئك الذين ألقوا الرعب في قلوب المسلمين والمسيحيين وغيرهم مما دل على استبداد متقلب مذبذب حيران، حتى لم يعد لاحد ثقة بالحكومة، وكاد الانقلاب يحدث في نفس السراي. وأكثر رجال السراي أميون ويندر في كتاب المابين من يعرف اللغة الفرنساوية بله غيرها من لغات أوربا، وهم في جهل مطلق بالسياسة. ولذلك كثر الخطأ السياسي وسوء الادارة واختلاس الاموال الاميرية وظلم الرعية بما لم يسبق له مثيل.

(لها بقية)

البلاد العربية والسكة الحجازية (*)

بلاد العرب أو شبه جزيرة العرب مساحتها مليون ومئة ألف ميل مربع، وعدد سكانها على أقل تقدير سبعة ملايين وعلى أكثره عشرة ملايين، وهي من أخصب البلاد أرضا وأجودها تربة وأعظمها خيرا اذا اعتني بها وتوفرت وسائل الامن والراحة والعمران فيها. واليمن أجود بلاد العرب بقاعا وأكثرها سكانا وأعظمها ثروة وخصبا، ولهذا كانت تسمى قديما (العربية السعيدة) الا انها محاطة بصحارى رملية منخفضة شديدة الحرقلية المياه، يظن السامع بها ان اليمن كلها على هذا النمط: صحارى ورمال مع ان هذه الصحارى لا تمتد الى الداخل من السواحل الشرقية والغربية أكثر من خمسين إلى ستين ميلا يجتازها المسافر في ثلاثة أو أربعة أيام حيث يرى سلسلة جبال التراة وبلاد شحر وحضرموت وجبل صعدة وصنعاء

---

(١) المنار: الشفرة في اللغة التركية هي المخاطبة بالارقام بطريقة لا يعرفها الا المتخاطبان وهي مأخوذة من كلمة (جفر) العربية

(*) بقلم رفيق بك العظم المؤرخ المشهور